تجليات السرد في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني(١)(ت ٤٧١هـ).

إعــداد
أ. ابتهال نظير نظير عبد المحسن
مدرس مساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب-جامعة الفيوم

مقدمة

يحاول هذا البحثُ دراسةَ "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني وفق رؤية تستمد أصولها، وأدواتها النظرية من مقولات علم السرد الحديث بوصفه علمًا معرفيًا يصلح لمقاربة أشكال الخطاب المختلفة، فموضوع البحث ليس النقد في ذاته وإنما الخطاب النقدي، أي الطريقة التي تُقدم بها مادة النقد، والطريقة السردية خاصة بوصفها إحدى إمكانات الخطاب المتاحة. وتتلخص مهمة البحث في توفير الوصف المنهجي للخصائص السردية في "دلائل الإعجاز" بأدوات إجرائية تبحث في البنية السردية الداخلية للنص، ولا تغفل سياقه الخارجي.

في سياق النص.

يعد عبدُ القاهر الجرجاني فقيهًا شافعيًّا ومتكلمًا أشعريًّا، وقد تجلَّى مذهبه الأشعري في كتاب "الدلائل" من خلال طرحه لنظرية "النظم" التي تعني "تعليق الكلم

---

(١)– عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرسان وخراسان) مولدا ووفاة. له شعر رقيق. تقوم شهرته على كتابيه "دلائل الإعجاز" ، و "أسرار البلاغة"، الأول في علم المعاني، والثاني في علم البيان. من كتبه الأخرى "إعجاز القرآن" ، و "تفسير الفاتحة". ينظر في ترجمته إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط١ ١٩٨٢م. ١٨٨/٢، والأعلام ٤/ ٤٨.

بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف. وللتعليق فيما بينهما طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما."[١]، فقد كان "النظم" اصطلاحًا "يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعللون القرآن بنظمه"[٢]. انطلق عبد القاهر من فكرة الإعجاز لإقرار قواعد النقد والبلاغة في كتابيه "الدلائل، والأسرار" حيث قرر بداية أن القرآن معجز، ثم راح يثبت بالدلائل العقلية هذا الإعجاز، "فقد كان النقد والبلاغة لدى المتحدثين عن الإعجاز في القرن الرابع مركبتين اتخذوهما للوصول إلى منطقة الإعجاز، ولكن عبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١هـ) أكبر متحدث عن الإعجاز في هذا القرن الخامس، سلك طريقًا معاكسة، حيث جعل منطلقه فكرة الإعجاز نفسها، وعن هذه الطريق أسهم في توضيح مفهوم البلاغة"[٣].

راح الجرجاني يشرح فكرته عن "النظم" التي هي دليل الإعجاز القرآني، فدحض الحجج التي قيلت في إعجاز القرآن بألفاظه، ووجد أن اللفظة الواحدة توحشك في موضع، ثم تروقك وتؤنسك في آخر، إضافة إلى أن ألفاظَ القرآن إنما هي من كلام العرب منظومه ومنثوره، لا جديد فيها، لذا ليس مرد الإعجاز إلى اللفظ، وليس مرده أيضًا إلى المعنى، ويحاجُّ هؤلاء المنحازين إلى المعنى، الذين يقدمون الشعرَ إذا اشتمل على معنًى نادر، أو أُودع حكمة، ويقرر فساد هذا المذهب، مستشهدًا برأي الجاحظ الذي جعل العلمَ بالمعاني مشتركًا، وسوَّى فيه بين الخاصة والعامة، وأورد مقالته المشهورة في أن "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة

---

[١]- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٤م، ص٤.

[٢]- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف– القاهرة، الطبعة الثالثة عشر ٢٠١١م، ص١٦١.

[٣]- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص٤١٩.

المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير."[1].

من ثم، فإن هجومَ عبد القاهر على المنحازين للفظ أو للمعني، واجتهادَه في دحض وإبطال حججهم، تمهيدٌ لعرض فكرة "النظم" التي أدار حولها خطابه، وقد ألزم نفسه بتكرار صيغة الحجاج في "إبطال أن يكونَ مردُّ الفصاحة إلى اللفظ أو المعنى، كما زعم الجبائي المعتزلي، وإن كان لم يصرح باسمه، إنما مردها إلى النظم كما قال الباقلاني الأشعري، وهو في ذلك يستمد من عبد الجبار، غير أنه يورد من التعريض به في الكتاب، ما يجعل القارئ يظن أن عبد القاهر هو أول من تنبه إلى تعليل الإعجاز القرآني بتراكيب الكلام، وصياغاته، وخصائصه التعبيرية، فإنه مضى يؤكد في كثير من صحفه أنها بمعناها المفهوم من كلام عبد الجبار والذي يلتقي بالنظم، ولا بد أن يذكر دائما أنه لا يعترف لعبد الجبار بهذا التحديد لمدلولها، بل هو يجعل ذلك رأيًا له يجادل فيها، ويدافع عنه دفاعًا حارًّا، وكأنه يريد أن ينتقم للأشاعرة من الجبائي، وأضرابه من المعتزلة الذين أنكروا أن يكون الإعجاز في نظم مخصوص، وردوه إلى الفصاحة، وكأنه في نقاشه ودفاعه يعني طوائف الأدباء والمتكلمين من المعتزلة الذين يذهبون مذهب الجبائي في أن مرد الفصاحة إلى اللفظ والمعنى جميعًا."[2]. وعليه فإن المعتزلة –كما أطلق عليهم في "الدلائل"– هم المعنيون بخطاب التوبيخ، والازدراء، والاستنكار المستمر من قبل السارد، فهم ذاك الخصم اللدود المعاند، وهم أهل النظر، وهم هذه الطائفة، وهم هؤلاء الناس، وهم أصحاب هذا المذهب، وهم هؤلاء القوم الذين لهم نباهة، وصيت، وعلو منزلة في نوع من أنواع العلوم غير علم البلاغة والفصاحة. لذا فإن أكثر ردود عبد القاهر جاءت ردًّا على مقولة المعتزلة، غير أنه لا يصرِّحُ بأسمائِهم.

(1)– دلائل الإعجاز، ص ٢٥٦.

(2)– البلاغة تطور وتاريخ. ص ١٦١، ١٦٢.

فعلى الرغم من أن فكرة "النظم" ليست من "بنات أفكار"[١] عبد القاهر نفسه، وأن لها ملامح واضحة سابقة عليه، فإنه يعزوها إلى نفسه، ويسند الخطاب لضمير المتكلم الذي يتكفل بالرؤية منفردًا، بيد أنه، وبعيدًا عن الجدل الحاصل حول أصول "دلائل الإعجاز" فإنه "لا يسع من يقرأ "دلائل الإعجاز" إلا أن يعترف بما أنفق عبد القاهر من جهد سابق، خصب، في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة، والأسلوب، والفصول. وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقا يدعو إلى الإعجاب. وإذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقا، فعبد القاهر هو الذي رفع قواعده وأحكم بناءه."[٢].

وليست مهمة البحث التنقيب عن صاحب الرؤية الحقيقية في الواقع، بل مهمته البحث عن تجليات السرد في خطاب "دلائل الإعجاز" بوصفه بنيةً مغلقة في ذاتها، ومنفتحة على سياقها الثقافي في الوقت نفسه، تستطيع أن تقدم نفسها بنفسها من خلال آلياتها الداخلية، والطريقة التي بها يقدم المؤلف/الراوي مادة النقد.

بيد أن دراسةَ البنية السردية للنص النقدي بمعزل عن السياق الخارجي ليس لها معنى معرفي، وسوف تُنْتج دراسة جزئية غير مجدية للتراث النقدي، فلابد لكل عنصر من عناصر تشكيل النص، حتي العناصر الداخلية، أن تتحدد أهميته مع العناصر الخارجية (السياق)، ومن هنا كان لا بد من التعريج -قليلًا- على أثر

---

[١] - ينظر في هذا بحث بعنوان: " الكشف عن أصول دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني" للدكتور حسن إسماعيل عبد الرازق، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، ع١٩،ج١، ١٩٩٣م. وخلاصته أن نظرية النظم التي أدار عليها عبد القاهر دلائله ليست من بنات أفكاره، وإنما هي من بنات أفكار أبي سعيد السيرافي المتوفى(٣٦٨هـ)،وما كتاب "الدلائل" إلا شرحا للمناظرة التي دارت بين السيرافي ومتي بن يونس المنطقي، وقد نقلها أبو حيان في "الإمتاع والمؤانسة" و "المقابسات"، وجاءت أفكار الدلائل مرتبة بترتيب الأفكار في المناظرة، وهو ما يبرر استخدامه لصيغة: " فإن قلتم كذا... قلنا كذا...".

[٢]- تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، طه حسين، مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٩٨٠م، ص٣٠.

السياق الخارجي في بناء النص النقدي، حتى يمكن استيعاب التشكيل الداخلي، وجوهر النص واستبيان نظامه البنائي.

تتحدد الخصائصُ السردية لـ "دلائل الإعجاز" من خلال النظام الداخلي للبنية النصية وسماتها، وكيف أعاد "الناقد/الراوي" تشكيل الحدث الفكري، التاريخي، العقائدي في بناء نصه، بما ضمنه من إعادة إنتاج للعناصر الفكرية، وعرضها داخل سرديته، وصياغتها وفقًا لرؤيته الفكرية، حيث جمع رؤى، ودلالات ضمن نظام زمني جديد، وتكفل "الراوي" بإعادة تشكيل القضية الفكرية، وتوصيفها، وإنجازها باستخدام تقنيات محددة خاضعة لإدراكه للقضية، حتى تصلَ للمتلقي بالوجه الذي يرتضيه "الراوي".

يتأسس أيُّ خطابٍ سرديٍّ بثلاث بنًى أساسية لإنجاز عملية السرد، وهي: الراوي، المروي، المروي له)، بتلك العناصر يتشكل الخطاب السردي عن طريق هذا الراوي الذي ينقل المروي (القصة) إلى المروي له، لغاية خاصة بذات الراوي، سواء كانت غاية تعليمية، أو معرفية، أو جمالية، ومن ثم فإن "المروي" الذي هو المادة الأولية لا تتحدد أهميته إلا إذا اتخذ شكلًا خطابيًا عبر قناة تواصلية بين الراوي والمروي له، ويهمين الراوي على هذه القناة باختياره نمط العرض والتواصل، وتقديم مادته إلى المروي له.

المبحث الأول: الراوي والمروي له.

أولا: العقد السردي.

وأول ما يظهر من تجليات السرد هو "الراوي/الناقد" الذي يؤسس لسرديته النقدية من خلال عَقْدِهِ عقدًا سرديًّا مع "المروي لهم"، فقد طرح سؤال الخصم الذي يتساءل مستفسرًا، أو جاهلًا، أو معاندًا، عن ماهية هذا النظم الذي يعني تعلق الكلم بعضها ببعض، فهو موجود في كلام العرب، فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل حتى أعجزَ الخلقَ قاطبةً، وقهر من البلغاء والفصحاء القوىَ والقُدَر؟ ، لقد كان هذا السؤال هو الدافع وراء تأليف "الدلائل"، وقد تعامل السارد – الذي يحمل الجواب الشافي– مع هؤلاء الخصوم باستعلاء، واستنكارٍ لأفكارهم الضالة، وعقولهم السقيمة، فهو بعد أن يطرح سؤال الخصم، لا يضطلع بالإجابة مباشرة، بل يفتتح جوابه بصيغة استنكارية تحمل عداوةً لم يستطع المؤلف إخفاءها، يقول:

"أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونرده عن ضلاله، وأن نَطبَّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه؟ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دينٍ، وعقلٍ أن ينظرَ في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريقُ إلى البيان، والكشفُ عن الحجة والبرهان، تَبِعَ الحقَ وأخذ به، وإن رأى طريقًا غيره، أَوْمَأ لنا إليه، ودلَّنا عليه، وهيهات ذلك!"[1].

يحمل هذا "العقد السردي" الحجاجي نظرةً دونيةً تجاه "المروي له" الخصم، بقدر ما يحمل احترامًا لنوع آخر من "المروي لهم" العقلاء الذين كشفوا عن قوةِ حجِّيَّة الدلائلِ الواردة في الجواب، واقتنعوا بها وتبعوها، لذا فإن توجه السارد إلى هؤلاء بخطابه أولى وأحرى، فهم المختصون بصيغة التنبيه والتعلم (أعلم...) المتكررة في ثنايا النص، أما هؤلاء المعاندون، فخطابه معهم مختلف، وكأنه يتجاهلهم ويزدريهم،

[1] – دلائل الإعجاز، ص ٩.

ولكنه لابد أن يرد، وأن يجيب على هذا التساؤل الذي يمسَّ جوهرَ العقيدة، فجوابه تقديرًا لعقيدته وليس لخصوم الفكر، ولذلك ألزمَ نفسه بالرد، سواء على هؤلاء اقتنعوا أم لا، ويعلم السارد جيدًا مدى عناد القوم وضلالهم، ولكنه يجيب ليتأمل كل ذي دين وعقل فيما أبانه وبرهن عليه، ويثق السارد في حُجَجِه ودلائله، بقدر ما يثق في عجز القوم عن الإتيان بحجة أدفع للشبهة من حجته، فهيهات لهم ذلك!

يستخدم الناقد/الراوي ضمير المتكلم لعرض الرؤية في خطابه النقدي، وعمد إلى إظهار ضمير "المتكلم" بشكل مبالغ فيه من التعظيم، ولعل في استعمال هذا الضمير ما يبيح له أن يتحدث باسمه، وأن يعرض آرائه، ومعارفه، وتجاربه الخاصة "دون تحفظ من نفسه"[1]، ما يوحي بأن الرؤيةَ الواردةَ في النص تعودُ إلى الراوي وحده، غير أنه يلمح تلميحًا طفيفًا بأنه وجد لفكرة النظم آثارًا غير أنها ليست واضحةٌ ولا هادية، يقول:

"ولم أزلْ منذ خدمتُ العلمَ أنظرُ فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة، وفي المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها. ووجدت المعوَّل على أن ههنا نظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا...وهذه جملة قد يُرَى في أول الأمر وبادئ الظن، أنها تكفي وتغني، حتى إذا نظرنا فيها، وعدنا وبدأنا، وجدنا الأمر على خلاف ما حسبناه، وعلمنا أنهم لئن أقصروا اللفظ لقد أطالوا المعنى، وأن لم يغرقوا في النزع، لقد أبعدوا على ذلك في المرمى."[2].

يعترف الراوي بوجود فكرة النظم قبله، غير أنها قاصرة، وبعيدة المرمى، لا يفيد وصفها وصفًا مجملًا، ولا قولًا مرسلًا، بل يلزم تفصيل القول وتحصيله، ومعرفة

---

[1]– خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ص٢٠٨.

[2]– ينظر دلائل الإعجاز، ص٣٤،٣٥.

الخصائص الدقيقة التي تعرض في نظم الكلم، ومن رام هذا الطلب الخاص، فإنه بحاجة إلى همَّةٍ وصبرٍ على التأمل والتدبر، ومتى جَشِمَ ذلك، فقد قصد إلى غرض كريم، وأي فضل أعظم من أن تعرف حجةَ الله تعالي من الوجه الذي هو (أضْوَأ) لها، وهي طريق آمنة من الشك والريب، وأصح لليقين، ويشترط الراوي الحامل لليقين الصحيح أنه "لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك"[1].

لقد عمل المؤلف في مستويات عديدة كي يحقق مرماه في إثبات دلائل الإعجاز على الوجه الأنور، من جمع الدلائل، وإيصالها بطرائق عديدة إلى المروي له، ليصل حدَّ الإقرار بها ولها، وإنه لعمل شاق على الراوي، والمروي له كذلك، وطريق وعرة، تحتاج الصبر الطويل، ولأجل ذلك فقد سلك كل مسلك لإقرار الحجة والدليل، ودحض الشبهة عن كتاب الله عزَّ وجلَّ.

نظَّم الراوي سرديته بين الهجومِ والدفاع، وهدْمِ حججٍ وإثباتِ أخرى، حيث مهَّد الحديثَ عن الإعجاز، بالوقوف عند علم البيان ومنزلته بين العلوم، وما لحقه من ضيم وخطأ، وجاء هذا ردًا على أصحاب اللفظ (المعتزلة) أولئك الذين سبقت إلى نفوسهم اعتقاداتٌ فاسدة وجهل فاحش، ورأوا أن علم البيان ليس له شأن كبير، غافلين عما فيه من دقائق وأسرار، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وعرفت بهذه الخصائص مزية الكلام، وتفضيل بعضه على بعض، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز. لقد كان جهلُ هذه الطائفة بهذه الخصائص والأسرار سببًا في سوءِ اعتقادِها في الشعر الذي هو معدنها وعليه المعول فيها، وفي علم الإعراب الذي هو كالناسب الذي ينميها إلى أصولها، وأعرضت عن الاشتغال بهما وتدبرهما[2].

---

[1]- ينظر السابق، ص ٣٨.

[2]- السابق، ص٧ ،٨.

بيد أن معرفة الجهة التي أظهرت الحجة بإعجاز القرآن هي أنه على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومحالًا أن يعرفَ فصاحتَه إلا من عرفَ ديوانَ العرب إذا تجاروا الفصاحة والبيان، فلا سبيل إلى معرفة حجة الله تعالى إلا من خلال (الشعر، والنحو) الذين ينتزع منهما الشاهد والدليل، ولا سبيل إلى الزهد فيهما، لأن الزهدَ فيهما زهدٌ في معرفة حجة الله تعالى بالعلم والعقل، وتلك هي الجهة الصحيحة التي إذا عرفت منها الحجة كانت أنور وأبهر وأقوى وأمهر(١). ومن ثم أخذ المؤلف يرد على مناهضي الشعر والنحو، بالحجة والدليل والأخبار الصحيحة الواردة عن الرسول ﷺ والصحابة، وقد مهد بهذا الحديث ليدخل منه إلى قضية النظم التي راح يبدئ ويعيد فيها الكلام.

ولما كانت الصيغة السردية هي التعبير عن وجهات النظر المختلفة التي ينظر منها إلى العمل/الحدث، فإن هناك درجات للتمثيل السردي للحدث، من حيث المسافة مما ترويه، وتنظيم الخبر الذي تبلغه حسب القدرات المعرفية عند الأطراف المشاركة في السرد، والتي تتبنى أو ترفض وجهة النظر في العمل، وعندها يتخذ السرد منظورًا معينًا، والمنظور، والمسافة هما الشكلان الرئيسان لتنظيم الخبر السردي (الصيغة)(٢).

ينظم الناقد عرضه السردي بطريقته الخاصة، فالأمر معه مختلف عما عهدناه مع النقاد السابقين، إذا كانوا يُفْصِحون في مقدمات كتبهم عما ينوون مناقشته تفصيلًا، سواء فعلوه أم لا، أما صاحب "الدلائل" فلا؛ حيث يرفض أن يُخبر متلقيه (القارئ/ المروي له) ما ينوي صنعه، والطريقة التي يقدم بها تبويب وترتيب الكتاب، يقول: "وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره، وأن أُسمي لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله عز وجل، حتى تكون على علم بها

(١)– السابق، ص ٩ ،١٠.

(٢) – ينظر خطاب الحكاية، ص١٧٧ وما بعدها.

قبل موردها عليك، فأعلم على أن ههنا فصولًا تجيء بعضها في إثر بعض، وهذا أولها"(١).

ينطوي هذا الخطاب الموجه إلى "المروي لهم" على قدر من استعلاء الراوي/الناقد الذي يَضِنُّ على متلقيه سواء المتعلم المثالي، أو الخصم المعاند، بأن يكشف له تبويبه، وربما كان عدم التزام الناقد بتبويبٍ معلنٍ مسبقٍ، والتزامه به أمام الطرف الآخر من العقد السردي هو ما أوقعه في مشكلة تكرار الموضوعات نظريًّا، وتطبيقيًّا، وأيضًا "عدم تركيز الأفكار، وعدم التقسيم المحكم للأبواب غالبًا، وإنما هي أفكار تَرِد فيسجلها، وربما يكون قد سبقَ له وشرحَ بعضَ الأفكار، أو شرح مثيلًا لها، وكان ينبغي ضمّ اللاحقَ إلى سابقه، أو زيادة في شرح ما سبق له أن شرحه."(٢)، غير أن ثقةَ الناقد واستعلاءَه الملحوظ منعه من تنظيم عرضه، وترتيب فصوله، "ولو أنه نسَّقه كما ينبغي أن يكون، ورتَّب فصوله ترتيبًا منطقيًّا يعالج كلٌّ فصل جزءًا من فكرته، ويسلم الفصل الأول إلى الثاني، والمقدم إلى التالي، لانجلتْ فكرته أكثر مما هي مجلوَّة في الكتاب"(٣)، فلو أن الناقد راعى حال "المروي له" الاستقبالية أكثر من توبيخه وتعنيفه، فنظم عرضه، وجعل الكتاب منسجم الأبواب والفصول، لتمت للكتاب وحدة ومنطيقة أجلَى.

لقد كان هذا التكرارُ الذي لزم الناقدَ في شرح فكرته في أن القرآنَ معجزٌ بـ(النظم) لا بالصرفة، ولا باللفظ، ولا بالمعنى، واعترافه بهذا التكرار مرارًا على نحو ما يقول: "واعلمْ أني على طول ما أعدْتُ وبدأْتُ، وقلتُ وشرحت، في هذا الذي قام في أوهام الناس من حديث اللفظ.."(٤)؛ موجهًا باستراتيجية الإقناع التي أخذها على عاتقه في الدفاع، وكشفِ الشُبَه حتى تمكَّن من غايته، وحقق ما كان يصبو إليه من

---

(١) – دلائل الإعجاز، ص ٤٢.

(٢) – عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، د/ أحمد أحمد بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب(٨)، مكتبة مصر، ص ٢٩٨.

(٣) – السابق، ص٢٩٩.

(٤) – دلائل الإعجاز، ص ٣٦٥.

إقناعهم بقضيته، وحتى قال في نهاية كتابه: "قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم، وعلاج الفساد الذي عرض في آرائهم كل مبلغ...".

وهذا التوجه المنهجي من المؤلف في عدم وضع خطة للكتاب في المقدمة، كعادة أهل زمانه في أنه ينوي العمل في "كذا وكذا"؛ هو ما يضع "المروي له" موضع انتظار، وترقب دائمًا لما هو آتٍ، فالفصول يجيء بعضها في إثر بعض حسب ما ارتأه الراوي، وربما تُوافِق أو تُخالف أفقَ توقُّع المرويِّ له الذي لا يجب عليه سوى الانتظار والترقب، ولا يحق له أن يعلم الأمر قبل أوانه، فلينتظر وليستعد لهذا الفيض المعرفي الذي يقبع في ذهن المؤلف/ الراوي، كلي المعرفة، وحده.

يستخدم السارد بين الحين والآخر ألفاظًا توحي باستعلائه وثقته اللامحدودة في أفكاره، في مقابلِ جهل، وقصور، وتقليد المروي لهم، وهو في كل مرة يطرح قضيته نفسها، يظهر وكأنه يَمُنُّ على :المروي لهم" في كشف الظلمات عنهم، يقول:

"قد أردنا أن نستأنف تقريرًا نزيد به الناس تبصيرًا أنهم في عمياءِ من أمرهم حتى يسلكوا المسلكَ الذي سلكناه، ويفرغوا خواطرهم لتأمُّل ما استخرجْناه، وأنهم مالم يأخذوا أنفسهم بذلك، ولم يجردوا عناياتهم له في غرور، كمن يعد نفسه الري من السراب اللامع، ويخادعها بأكاذيب المطامع."[١].

يوحي هذا الخطاب أنه موجه إلى فئةٍ معينة (ناس في عمياء من أمرهم)، وتفيض لهجته بالإنكار، والتعالي الممزوجين بالثقة والرغبة في إفهامهم وتعليمهم، فهو إذ يحطُّ من شأنهم، يحثهم ويقدم لهم ثمرة جهوده وتأملاته، ويفجر لهم ينابيع فكره.

وتستمر هذه اللهجة المقللة من شأن هذه الفئة حتى بعد أن أنهى السارد مهمته، وأتمَّ عمله على الوجه الذي ارتضاه، فإذا بخطابه اللاذع لخصمه الفكري

---

(١) – السابق، ص٣٨٥.

يحمل الإنكار والتعسف ذاته، ولأن الخاتمة "في علاقة عضوية بمختلف عناصر البينة النصية وخاصة الفاتحة، ولذلك يهتم المؤلفون بالاختتام اهتمامهم بالابتداء."[١]، ويبدو ذلك جليًّا في موقف مؤلف "الدلائل" حيث جاءت الخاتمة باللهجة المعتاد عليها على طول النص، بما تحويه من استعلاء، وتعظيم، وفرادة من جهة "الراوي" لنفسه، وتحقير، وازدراء، ودونية يتوجه بها إلى "المروي لهم"، يقول في ختام عمله:

"قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم، وعلاج الفساد الذي عرض في آرائهم كلَّ مبلغ، وانتهينا إلى كل غاية، وأخذنا بهم عن المجاهل التي كانوا يتعسفون فيها إلى السنن اللاحب، ولم ندع لباطلهم عرقًا ينبض إلا كويناه، ولا للخلاف لسانًا ينطق إلا أخرسناه."[٢].

فها هو السارد بدلًا من أن يختم عمله ختامًا لينًا، يستميل به عقول وقلوب مستمعيه، وخاصة المقصودين بالخطاب التوبيخي، فإنه يستمر في لهجته المحقرة لهم، والمعظمة لنفسه، فهو المُصْلِحُ لفسادِ العقول، والهادي لنور اليقين، وقد أتى على غايته حتى أنار لهم الطريق، وشفى منهم العليل، وكوى عروق الباطل وأخرس لسان الخلاف، ثم يقول:

"فيا أيها السامع لما قلناه، والناظر فيما كتبناه، والمتصفح لما دونَّاه، إن كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة، فقد هديت لضالتك، ووازن بين حالك الآن وقد تنبهت من رقدتك، وأفقت من غفلتك، وصرت تعلم إذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم معنى ما تذكر، وبينها وأنت من أمرها في عمياء وخابط خبط عشواء، قصاراك أن تكرر ألفاظًا لا تعرف لشيء منها تفسيرًا، فإنك

---

[١] – معجم السرديات، مجموعة من المؤلفين، إشراف محمد القاضي، دار محمد على للنشر – تونس، وآخرون، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، ص١٦٦.

[٢] – ينظر الدلائل، ص٤٧٧.

تراك تطيل التعجب من غفلتك، وتكثر الاعتذار إلى عقلك من الذي كنت عليه طول مدتك."[١].

يوجه هذا الخطاب "المروي له" إلى استعادة عناصر نصية بعينها، حتى يتمكن من تلك الموازنة بين حاله قبلها وبعدها، وليعلم يقينًا أنه كان في عمياء من أمر "اللفظ والنظم"، ما يحدو به إلى الاعتذار إلى عقله صراحة، وإلى كاشف الظلمات –المؤلف– عنه ضمنيًّا، ومن ثم فإن "الخاتمة النصية موضع يبني فيه المؤلف اكتمال الخطاب وانفتاحه في آن، ويسعى إلى مضاعفة التأثير في القارئ حتى يسترجع عناصر القصة عبر إعادة القراءة أو التذكر، ويأخذ الخطاب في كليته شكليًّا، ودلاليًّا ويذهب في التأويل وإدراك الرسالة ما يتجاوز الظاهر من المروي أو الخطاب الراوي، وهذا السعي قد تترجمه أساليب عديدة مثل استعادة الخاتمة لعناصر من العنوان أو الفاتحة أو مواضع محددة من النص"[٢]. ولذلك تظل الخاتمة في علاقة عضوية مع عناصر النص، وامتدادًا لرؤية المؤلف/ الراوي.

تحيل (الدلائل) التي جاءت في العنوان إلى النص بأكمله، فهي الإجابة، والرد الشافي، والهادي لأسئلة ضمنية طرحها المؤلف على ألسنة أصحابها، وهؤلاء هم المعنيون في خطاب التوبيخ الذي يضمره المؤلف لهم، ويتميز خطابه فيه بـ "صيغته التعليمية الحوارية التي أتقن عبد القاهر فيها أساليب الجدل الحامل آثارًا من أشعريته، وهو يطيل المحاورات، ويتسع صدره لآراء المخالفين، ويذهب معهم بعيدا كما يبلغ مراده دون مصادرة على المسائل."[٣].

يتحدد الوضع السردي في "الدلائل" من خلال علاقات "الراوي" بالمتن السردي وما يتضمنه من إشارات زمنية تربطهما، فلابد لكل حدث مروي من أن يتموقع داخل

---

[١] – ينظر السابق، ص٤٧٨.

[٢] – معجم السرديات، ص١٦٧.

[٣] – دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى٢٠٠٧م، مقدمة المحقق، ص١٧.

الزمن بالقياس إلى الفعل السردي؛ لأن المسافةَ الزمنية وما يملؤها وما ينشِّطها، هي عنصرٌ جوهريٌّ في دلالة الحكاية، والتحديد الزمني الرئيس للمقام السردي هو موقعه النسبي من القصة[١].

لا يظهر في "الدلائل" أيُّ تعبيرٍ عن ترتيبٍ أو مدةٍ تفصلُ الكاتبَ عن الأحداث المروية، بل إنه يشير إلى أنه يكتب لزمنه، المعاصر له، قال: "ثم إنَّا وإنْ كنَّا في زمان هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهاتها، وتحويل الأشياء عن حالاتها، ونقْلِ النفوس عن طباعها، وقلب الخلائق المحمودة إلى أضدادها، ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلا الشر صرفًا والغيظ بحتًا، وإلا ما يدهش عقولهم، ويسلبهم معقولهم، حتى صار أعجز الناس رأيًا عند الجميع، من كانت له همّةٌ في أن يستفيدَ علمًا، أو يزداد فهمًا..."[٢]، أسهم التحديد الزمني للسرد في فهم دلالة العمل واستيعاب سياقه، لقد كانت طبيعة هذا الزمن فيما هو عليه من الوصف تفسيرًا مساعدًا في الخطاب التعنيفي للراوي/المؤلف تجاه مخاطبيه من أهل زمانه، وأيضًا مفسرًا لذلك الاستعلاء والازدراء المتلازمين لخطابه، ثم ما كان منه إزاء كل هذا العبث الذي طال العلم والخلائق، إلا أن يعيد الأشياء إلى مواضعها، ويكشف ما خفى، ويبين الدليل والسبيل إليه.

فبدا كتابه كأنه مناظرة فكرية، وجهًا لوجه بين طرفين، يكيل كلٌّ منهما للآخر ما استطاع على مستوى النص نفسه، وكأن مُناظِرَه أمامه يسأله ويجيب عليه، يقول:

"وذاك أنه يقال لنا: ما زدتُم على أن سُقْتم قياسًا، فقلتم: نظم ونظم، وترتيب وترتيب، ونسخ ونسخ، ثم بنيتم عليه أنه ينبغي أن تظهر المزية في هذه المعاني ها هنا، حسب ظهورها هناك، وأن يعظُم الأمر في ذلك كما عَظُم ثَمَّ، وهذا صحيح كما قلتم، ولكن بقي أن تعلمونا مكان المزية في الكلام، وتصفوها لنا... ولا يكفي أن

---

[١] – ينظر خطاب الحكاية، ص٢٣٠.

[٢] – ينظر دلائل الإعجاز، ص٣٣، ٣٤.

تقولوا: "إنه خصوصية في النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض". حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها، وتذكروا لها أمثلة..."[١].

لقد أُنجز السرد في تلكم اللحظة من زمن الحاضر، وكأن الحدثَ الواقعيَّ "المناظرة" متزامِنٌ مع الفعل السردي ذاته، حيث يسرد الراوي إرهاصات الكتابة، ودواعي التأليف التي سوف ينجزها، وهو ما يشير إلى أن السردَ لم تفصله مسافةٌ زمنيةٌ عن الحدث الفكري المعنيِّ، وكشف بذلك عن مزامنة/معاصرة نسبية للعمل السردي، باستخدام صيغة الحاضر، مما يقلص المسافة بين الحدث الفكري المتأجج، ولحظة السرد التي أنجزها الراوي، حيث يوحي ذلك بأن هناك تناظرًا زمنيًّا بين الراوي والحدث، يؤكده استخدام ضمير المتكلم من قبل الراوي، فهو يقدم تجربته بصفته شخصية في الحدث الفكري.

تتسم شخصية الراوي/ الناقد بأنه واثقٌ بنفسه مطمئن باعتقاده الذي تبناه، فهو "ذو شخصية قوية مستقلة، تشعر وأنت تقرأ كتابيه أنك أمام أستاذ يقرر لك آراءه في اطمئنان وثقة، ويعرض عليك الموضوعات مصبوغة بصبغته الخاصة، وأسلوبه الخاص، وكان منهجه في عرض أفكاره أنه يلحُّ عليها إلحاحًا شديدًا، يجمع كل ما يملكه من جهدٍ في شرحها والتمثيل لها، ودفع الشُبَه عنها، فهو بحق يعرض ما يؤمن به، وكثيرًا ما يكرر الفكرة لتثبيتها، ويتميز أيضًا بقلة النقل، فأقواله في معظمها منسوبة إلى نفسه، وعندما يتطلب الأمر النقل، فإنه النقل الذي يسند به رأيه بعد أن يكون هذا الرأي قد أوضحه عبد القاهر من جميع جوانبه، وألقى عليه من شخصيته."[٢]،

يحمل الراوي رؤية خاصة تجاه قضية إعجاز القرآن، وتتركز هذه الرؤية في فكرة "النظم" التي تعد جوهر "الدلائل"، بل هي جوهر مذهب عبد القاهر النقدي واللغوي بصفة عامة، وقد أظهر "دلائل الإعجاز" ملامح معركة فكرية عَقَديَّة دارت

---

[١] – السابق، ص ٣٥، ٣٦.

[٢] – ينظر عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص٣٠٣، ٣٠٤.

بين قطبين من أهم المذاهب الإسلامية، وهما "المعتزلة والأشاعرة"، وقد كانت العلاقة بين كلام عبد القاهر وفكر المعتزلة هي الأساس السردي الذي نهض عليه "دلائل الإعجاز" وخاصة كلام القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه المغني، فقد كان كلُّ همِّ عبدِ القاهر "أن ينقض كلام القاضي في الفصاحة، وأن يكشف عن فساد أقواله في مسألة اللفظ، بالمعنى المؤقت المحدد في كلامه في كتابه "المغني"، دون المعنى المطلق للفظ من حيث هو لفظ ونطق ولسان"(١). وقد اتخذ الراوي موقفًا ضدًا من أصحاب اللفظ، ووجه إليهم خطابًا عنيفًا لفظيًّا، بيد أن أصحاب اللفظ لم يكونوا المعنيين الوحيدين بالخطاب، حيث بدا السارد وكأنه يخاطب أصنافًا مختلفةً من المروي لهم، واختلفت نبرته بينهم، فتارة يستخدم أسلوبًا حانيًا مؤملًا ناصحًا، وتارة يستخدم أسلوبًا غليظًا توبيخيًّا مستنكرًا، ويرجع اختلاف الأسلوبين إلى اختلاف صنفين من "المروي لهم" يتوجه بخطابه إليهما.

ثانيا: تعدد المروي لهم

يستدعي الراوي في بداية خطابه "المرويَّ له" المتوافقَ معه والمتأملَ الجيدَ لأفكاره، يتوجه إليه السارد بودٍ، فهو مثال يحتذى في حسن التعلم والإنصات، مع خلفية معرفية، وإيمانية تمكنه من فهم ما يقصده الراوي ليزداد علمًا وفهمًا، يحثه على التأمل فيقول: "وقد وصلت بأخَرَةٍ إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة، دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه، وبعثه على طلب ما دوناه."(٢). يعد يعد ذلك حثًّا للمروي له على التدبر، واختبارًا لإيمانه، ويكرر المؤلف استدعاء هذا الصنف بين الحين والآخر: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علمًا لا يعترضه الشك، أن لا نظم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض،

(١) – دلائل الإعجاز، ص هـ مقدمة المحقق محمود شاكر.

(٢) – السابق، مقدمة المؤلف ص٣ ،٤.

وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقلٌ ولا يخفى على أحدٍ من الناس."[١].

ينسجم هذا الصنف من "المروي لهم" مع موقف الراوي، لذا يسْتحثّه استحثاثَ المتَبَنِّي والأستاذ، على النظر فيما يقول: " فانظر الآن نظر من نفي الغفلة عن نفسه..."[٢]، ما يؤكد موقفه المنسجم مع هذا النوع، ورغبته في تعليمه، فهو موقف الأستاذ بتلميذه الفذ الذي يعي ما يُطرح عليه، مستزيدًا من معلمه، ساعيًا إلى رضاه وفهمه. ورغم هذا التناغم بين الراوي والمروي له هذا، فإنه مازالت هناك فجوة معرفية بينهما، حيث يقف "المروي له" في وضع أدنى من الراوي، معرفةً وعلمًا، ويرجع ذلك إلى الوضع الذي وضعه السارد لنفسه منذ البداية، فهو الأستاذ العدل الذي يتوجه بعلمه إلى من هم أقل منه علمًا وفهمًا، سواء في ذلك هذا الصنف المطيع والمنتبه، أم ذاك الخصم العنيد الضد.

يتوجه السارد/الناقد إلى "المروي له" بصيغة الأمر المباشر "اعلم" التي تتكرر على طول الخطاب، بما توحيه هذه الصيغة من هيمنة المُعَلِّم على المتعلم، بلهجة استعلائية حازمة، و"المروي له" المعنيُّ بهذه الصيغة هو المقصود برتبة التعلم والفهم، وهو أيضًا ذو القوة والدين، المتوجه إليه الخطاب منذ بدايته، آملًا منه الفهم والتدبر والتعلم، وأن يتأمل تأملَ المتثبّت، وينظر نظرَ المتأني، ويرجو منه أن يحسن ظنه، وأن ينشط للإصغاء إلى ما يورده عليه، فهو المتوجه إليه بهذا الأسلوب الممتد على طول الخطاب، وعرضه.

يحرص الراوي على تعليمه وإفادته، فيجمل ما يفصل، ويفصل له ما يجمل، ليبين له ما أراد حتى يُحصِّلَ ويطَّلعَ على فوائد جليلة، ومعاني شريفة، ويَحصُل له أثرًا في الدين عظيمًا وفائدةً جسيمة، يُزيل به الكثيرَ من الفساد الذي علق بـ"التنزيل"، ويصلح أنواعًا من الخلل المتعلق بالتأويل، ما يحفظه من أن يُغالط في فكره

(١) – السابق، ص ٥٥.

(٢) – السابق ص٥٠٧.

ودعواه، ويدافع عن عقيدته ومغزاه، ويربأ به عن أن يستبين هدى ثم لا يهدي إليه، وأن يكون عالمًا في ظاهرِ مقلد، وهذا حرصٌ شديدٌ من الراوي على إزالة الجهل والغموض عن تلميذه، ليضع بين يديه هذا البحث الذي ينتقي له من علم الإعراب خالصه ولبه، حتى تقرَّ الأمورُ قرارها، وتوضع الأشياءُ مواضعها، ليكشف عما يخفى، حتى يزداد ثقة بالحجة، وينتصر على الشبهة بالدليل والبيان.(١).

وليس هناك أدنى شك في كون هذا التلميذ الطيّع، لديه من الاستعداد الإيماني والنفسي ما يمكنه من تقبل هذه الدلائل، واستيعابها، طالما أنه يأخذ نفسه بذلك، ويجرد عنايته لها، فيزداد بصيرة علمية فوق بصيرته الإيمانية، ويتوجه إليه قائلًا: فأنتت لن صل إلى شفاء علتك، وثلج يقينك "حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملًا، إلى العلم به مفصلًا، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تبع الماءَ حتى عرف منبعه."(٢)، لذا تسهم هذه الشخصية في النشاط السردي حتى ولو كانت مساهمتها سلبية، فرغم انتماء شخصية "المروي له" هذه إلى عالم السرد، فإنها لا تكاد تنطق أو تظهر في النص، ربما لاقتناعها التام بكل ما يمليه عليها "الراوي"، فهي بمثابة جهاز استقبال مثالي للسرد، حتى عندما يُطرح عليها سؤال، لا يحق لها الجواب أو التعليق.

في مقابل هذا الصنف من "المروي لهم" المنسجم مع "الراوي"، والذي يبدو وكأنه هو المتحد معه في ضمير المتكلم الجمعي "نا"، يظهر نوعٌ آخر يتوجه إليه خطاب السارد، وهو نوع مختلفٌ –نسبيًا– عن النوع السابق المتوافق مع السارد، حيث ألبسه الساردُ لباسَ الخصومةِ منذ أن لمَّحَ بحضوره، أطلق عليه لفظ "الخصم"، مع ما يحمله هذا اللقب من غضب وعداوة من جهة الراوي، ويحمل في طياته عنادًا وشكًّا من جهة "المروي له"، لقد أطلق عليه "خصمًا" بمجرد أن تساءل عن ما الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية حتى أعجب الخلق قاطبة، في حين أن النظم موجود على

(١)– دلائل الإعجاز، ص٤١ ،٤٢.

(٢)– السابق، ص ٢٦٠.

حقيقته بكل وجوهه من التعلق في كلام العرب منثوره ومنظومه حقيقة، لا خلاف عليها، فقد كان هذا السؤال كافيًا لإطلاق السارد حملته الفكرية واللفظية على هذا الخصم.

يتعالى السارد في خطابه تعاليًا ملحوظًا، ليس كموقفه من الأول المتفق معه، وإنما جاءت ألفاظه معه حادة مستعلية متضمنة ازدراء له كما جاء في قوله: "أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونرده عن ضلاله، وأن نطبَّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه، فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ونستقصي التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإن رأى له طريقًا غيره، أومأ لنا إليه، ودلنا عليه، وهيهات ذلك"(١). يلصق الراوي صفاتٍ أخرى لهذا الخصم، فهو ضالٌّ مريضُ الفكر، فاسدُ الرأي، واضطلع المؤلف بمهمة الطبيب الذي يداوي فكره ويزيل الفسادَ عن رأيه، ويرده عن ضلاله، ولكنه يتوجب على هذا الخصم أن يستقصي حقيقة التأمل في هذا الكتاب، وعندها سيكون أمام أحد أمرين: إما أن يعلم يقينًا أنه الطريق إلى البيان، والكاشف عن الحجة والبرهان، وسبيله في ذلك اتباع الحق والأخذ به، أو يجد له طريقًا غير ذلك البيان، وحينها فليُشر إلى هذه الطريق، والسارد ها هنا يستنكر أن يكونَ هناك طريقٌ آخرٌ للحق غير ما رسمه وخطَّه في كتابه، فقد وضع فيه كل دلائل النظم وسبيل الإعجاز فيه، ولم يكتفِ بالتأسيس السردي لفكرته ورؤيته، بل نظَّمه شعرًا، أودع فيه ما يخص فكرة النظم، التي تعود بطريقةٍ ما إلى معاني النحو وأحكامه، فمحصولها هو تعلق الكلم بعضها ببعض، يقول:

إنـــي أقـــولُ مقَـــالاً لســـتُ أُخْفِيـــه ... ولستُ أرهبُ خصما إنْ بَدا فيـهِ

مــا مِــن ســبيلٍ إلــى إثبــاتِ مُعجـزة ... في النظمِ، إلا بما أصبحتُ أُبْديـهِ

(١)– دلائل الإعجاز، ص٩.

وقـد عَلمنــا بــأنَّ الــنظمَ لــيس سِــوَى حُكْمٍ من النحو نَمضِي في تَوَخِّيهِ
لــو نقَّــبَ الأرض بــاغٍ غيــرَ ذاك لــهُ معنــىً، وصــعَّدَ يعلُــو فــي ترقِّيــهِ
مــا عــادَ إلَّا بخســر فــي تطلُّبِــهِ ولا رَأى غيــرَ غــيٍّ فــي تبغِّيــهِ
تــرى تصــرُّفَهُم فــي الكــل مُطَّــرِدًا يُجْرُونَــهُ باقتــدارٍ فــي مَجَارِيــهِ
فمــا الــذي زادَ فــي هــذا الــذي عَرَفُــوا حتى غَدَا العجزُ يَهْمِي سُيلُ واديهِ
قولــوا، وإلَّا فأصْــغُوا للبيــان تَــرَوا كالصُّبحِ مُنْبَلِجاً في عَيْن رائِيهِ [١]

فما هذه الأبيات إلا ترجمة منظومة لما سبق وقاله في حق "النظم" و"الخصم"، أضاف الراوي فيها صفاتٍ أخرى للخصم لا تخرج عما سبق، فهو الخاسر، الباغي، العاجز عن الجواب الشافي. يتخذ الراوي موقفًا صريحًا من هذا الخصم على امتداد خطاب "الدلائل"، فدائما يوبِّخه ويحطُّ من قدره، ويرى أنه مقلدٌ سيءُ الظنِ والفكر، حتى بعد إثبات الدليل يصر على موقفه الباطل، يقول: "فلو كنت ممن يُنصف كان في بعض ذلك ما يغير هذا الرأي منك... ولكنك أبيت إلا ظنًا سبق إليك، وإلا بادِيَ رأيٍ عنَّ لك، فأقفلت عليه قلبك، وسددت عما سواه سمعك، فَعَيَّ الناصح بك، وعَسُر على الصديق الخليط تنبيهك."[٢]. تضمن أسلوبُ الشرط الموجه إلى الخصمِ دلالةَ الاستنكار، والتهكم، والازدراء، لذا فإن كان الراوي/المؤلف وجه خطابه إلى هذا الصنف المعاند من "المروي لهم" فإنه لا ينتظر منه خيرًا في الفهم أو الدين، رغم ما ساقه من حجج، ودلائل دقيقة في كل سؤال طرحه هذا الخصم، بسبب عناده وتقليده، بل يتوجه إلى هذا التلميذ الموافق الطيع،

---

[١] – السابق، مقدمة المؤلف، ص١١:٩.

[٢]– ينظر السابق، ص١٦.

طيب العقل والدين، المتقبل للتعلم والنصح، فيزيده علمًا بصيغة (اعلم... اعلم... اعلم...).

وفي كل مرة يتعرض "الراوي" لفكرة "النظم"، يستدرج هذا الصوت الذي أعياه جدلًا، ليبرحه تعنيفًا لاذعًا، ويزيده توبيخًا مريرًا، لما يلقاه معه من جهد حتى يُمِيلَه عن رأيه، فهو يعالج مرضًا مزمنًا. وتتمحور مشكلة هذا الصنف في عدم جهلهم بفكرة "النظم" نفسها، إذ حسبوه شيئًا غير توخي معاني النحو، "وذلك أنهم يروننا ندعي المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معاني النحو شيءٌ يُتَصور أن يتفاضل الناس في العلم به، ويروننا لا نستطيع أن نضع اليد من معاني النحو ووجوهه على شيء نزعم أن من شأن هذا أن يوجب المزية لكل كلام يكون فيه"[1]، ولا يستطيع "الراوي" دائمًا الانتصار عليه، إذ يعترض هذا الخصم على مسائل خفية ومعاني روحانية، لا تعتمد على علمٍ بعينه بقدر ما تعتمد على الذوق والقريحة، "ولسنا نستطيع في كشف الشبهة في هذا عنهم، وتصوير الذي هو الحق عندهم.. فليس الداءُ فيه بالهين، ولا هو بحيث إذا رمْتَ العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفًا، والسعي منجحًا، لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها، أمور خفية، ومعانٍ روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علمًا بها، حتى يكون مهيأً لإدراكها، ويكون له ذوقٌ وقريحة، يجد لهما في نفسه إحساسًا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة."[2]. ولعل في هذا الحديث اعترافًا صريحًا من قبل الراوي بعجزه عن الانتصار لأفكاره أمام هذا الخصم، ولا يعني هذا تفوق هذا الصوت على الراوي بقدر ما يعني أن هناك داءً دويًّا مستوطنًا، لا حل له سوى السكوت عنه، وتجاهله، فقد دأب هذا الصوتُ على العناد والضلال، فضلت عنهم أفهامهم، وشردت منهم.

---

(1) – دلائل الإعجاز، ص٥٤٦.

(2) – السابق، ص ٥٤٧.

ثم أضاف الراوي ملامحَ تعريفية جديدة لخصمه، فقد كان هذا الخصمُ– الذي بلغ الراوي من التعريض به حدًّا كبيرًا– ذا منزلةٍ وصيتٍ في المجتمع، وقد برع هذا الخصم في نوع من العلوم غير علم الفصاحة، فأشار إلى ذلك بقوله: "واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول، إذا كان صَدَره عن قوم لهم نباهة وصيت وعلة منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له والمُشِيدون بذكره، صار ترك النظر فيه سنة، والتقليد دينا، وكم من خطأ ظاهر ورأي فاسد حَظِيَ بهذا السبب عند الناس، حتى بوَّأوه في أخص موضع في قلوبهم، ومنحوه المحبة الصادقة من نفوسهم، وعطفوا عليه عطف الأم على واحدها، وكم من داء دوي قد استحكم بهذه العلة، حتى أعيا علاجه، وحتى بَعِلَ به الطبيب. ولولا سلطان هذا الذي وصفت على الناس، وأن له أُخذةً تمنع القلوب عن التدبر، وتقطع عنها دواعي الفكر، لما كان لهذا الذي ذهب إليه القوم في أمر (اللفظ) هذا التمكن وهذه القوة."[١].

لعل اعتراف الراوي بمنزلة هذا الخصم وعلو شأنه، وتمكنه من نشر أقواله المدخولة هذا التمكن، ما حدا به إلى التعريض والوصف اللاذع لهذا الخصم، فلو كان لا شأن له لما تكفل وعني بالرد عليه، ولما منحه كل هذه المساحة السردية، ولما أصبح علامة وتقنية سردية، أسهمت بدور بارز في تأطير السرد، وتجلي حواريته النقدية، فقد تتبع الراوي أقوال هذا الخصم، ورد عليه في كل مسألة تفصيلًا وإجمالًا، وتتجمع علامات "المروي له/ الخصم" جنبًا إلى جنب، مُشكِّلَة صورة سردية لهؤلاء القوم الذين هم في عمياء من أمرهم، والذين تلزمهم هذه الشناعات التي أفاض الراوي بذكرها، فهم أصحاب اللفظ، وهم أهل الصرفة.

من ثم فإن صنفين من "المروي لهم" يعنيهم الراوي/ المؤلف بالخطاب، فهم بين موافق ومخالف لرؤية الراوي، أما الموافق فهو عنصر صامت، لا يتعدى كونه علامةً سردية لا تشارك في العملية السردية، بينما يستدعيه الراوي بأسلوب الأمر

---

[١] – السابق، ص٤٦٤، ٤٦٥.

المباشر المتكرر (اعلم أن...) ليتثبت معه ويشاركه أفكاره، ويؤمِّن عليها، أما "المروي له" الخصم المخالف في الرأي، فإن له دورًا ملحوظًا في تشكل البنية السردية في "الدلائل"، بما يُفعِّل الحوارية النقدية.

المبحث الثاني: الوظيفة الحجاجية للحوار، والوحدة السردية.

أولًا: الوظيفة الحجاجية للحوار:

إن وسمَ النص بالأدبية لا يرتدُّ إلى الصياغةِ اللغوية وحسب، وإنما إلى الشكلِ الحواريِّ نفسه، بوصفه وسيلةً أدبيةً يُبْسَطْ من خلالها الموضوع عبر أصواتٍ متعددة، تجسد الاختلاف والتعارض، أو الاتفاق والانسجام. وقد فرض موضوعُ "الدلائل" الشكلَ الحواري؛ لكونه مناسبًا لمناقشة قضية الإعجاز، ومناقشة الخصائص التي تجعل من نص ما معجزًا، فتعدد الآراء حول فكرة الإعجاز بين قائل إن الإعجاز باللفظ، وقائل إن الإعجاز بالمعنى، وقائل آخر بالصرفة، ثم تلك الفكرة الفذة التي بلورها "الجرجاني" في نظرية "النظم"، هذه الرؤى المتباينة حول تلك القضية نفسها، تتطلب شكلًا حواريًّا يسمح بتدفق الأفكار، ومناقشتها، فالدلائل هي إجابات وعلامات وإشارات، لأسئلة وتساؤلات ومحاورات أرهقتْ الباحثين في قضية الإعجاز.

يواجه "الجرجاني" بوصفه فقيهًا شافعيًّا، ومتكلمًا أشعريًّا عقيدةَ المعتزلة الذين وصفهم بأهل النظر، ويتمثل جوهر الصراع الفكري بين المعتزلة والأشاعرة في القرن الخامس الهجري، في اعتقاد الأخيرة "أن القرآن العظيم ينقسم إلى مدلول قديم، هو صفة أزلية قديمة من صفات الله تعالى، وإلى دوال حادثة هي الألفاظ والعبارات التي تكون في هيئتها التركيبية ونظمها تابعة لذلك المدلول القديم، وقد وقف المعتزلة موقفًا مباينًا حيث نفوا تمامًا وجود الكلام النفسي لعدم استنادِ هذا الرأي إلى أدلةٍ مقنعة في نظرهم، ومما يجب التنبيه إليه أنه لا نزاع بين الأشاعرة والمعتزلة في حدوث الكلام اللفظي، إنما النزاع بينهم قائمٌ في إثبات الكلام النفسي ونفيه، وعلى هذا الأساس قال المعتزلة بخلق القرآن من غير الفصل بين دواله ومدلولاته.".[(١)] ومن هنا تحديدًا احتدم الصراع الفكري بين الفريقين، ولأجل العقيدة وحدها خاض "الجرجاني" هذه المعركة، وكان سبيله في إثبات مكمن الإعجاز هو نظم القرآن، فكان "الحجاج"

---

(١)- الحجاج في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، د/ عبد القادر حمراني، بحث منشور بمجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، ع٣١ ، ٢٠١٥م. ص ٢١٣، ٢١٤.

واضحًا وصريحًا في أسلوب "الجرجاني" وهو يخاطب هذا الخصم، وقد حاجَّه بكل ما أوتي من أدلةٍ، نقلية وعقلية، فأقام الحجةَ من كل جوانبها. ويرى أن السبيلَ الوحيد لمعرفة النظم هو التمكن والحذق في فهم لغة العرب، وفي مقدمتها الشعر، فأقام الحجةَ على مَن ذم الشعر وعلم الإعراب، وبين منزلتهما من إعجاز القرآن، كما حاج من أرجع الإعجاز القرآني إلى "البيان" وحده، فقال:

"ولا يمكنُ أنْ تُجْعَلَ "الاستعارةُ" الأَصْلَ في الإعجاز وأن يُقْصَرَ عليها؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلى أَن يكونَ الإعجازُ في آيٍ معدودةٍ في مواضعَ مِن السورِ الطوالِ مخصوصةٍ، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن "النظم" مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. وإذا ثبت أنه في "النظم"، و"التأليف"، وكنَّا قد عَلِمْنا أنْ ليسَ "النظمُ" شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامِه فيما بينَ الكلمِ، وأنَّا إنْ بقينا الدهر نجهد أفكارَنا حتى نَعْلَمَ، للكلِمِ المفردةِ سِلْكًا يَنْظِمُها، وجامعًا يَجْمعُ شمْلَها ويؤلِّفها، ويَجْعل بعضَها بسبَبٍ مِنْ بعضٍ، غيرَ توخِّي معاني النحو وأحكامِهِ فيها، طَلَبنا ما كلُّ محالٍ دُونَه؛ فقد بانَ وظهَرَ أنَّ المتعاطيَ القَوْلَ في "النظم"، والزاعمَ أنه يحاولُ بيانَ المزيةِ فيه، وهو لا يَعْرِض فيما يُعيدُه ويُبديهِ للقوانين والأصول التي قدَّمْنا ذِكْرَها، ولا يَسْلك إليه المَسالِكَ التي نَهَجْناها، في عمياءَ مِنْ أمرِه، وفي غرورٍ من نفسه، وفي خِداعٍ من الأماني والأضاليلِ؛ ذاك لأنَّه إذا كان لا يكونُ "النظمُ" شيئًا غيرَ توخِّي معاني النحو وأَحكامِهِ فيما بينَ الكَلِمِ، كان مِن أَعجْب العَجَبِ أَنْ يزْعُمَ زاعم أنه يطلب المزية في "النَّظْم"، ثم لا يَطْلُبُها في معاني النحو وأحكامِه التي "النظْمُ" عبارةٌ عن توخِّيها فيما بين الكلم."[١].

فيرى أن الصورة البيانية من استعارة، وكناية، وتمثيل، وسائر ضروب المجاز هي من مقتضيات النظم. وهكذا يتتبع الناقدُ آراءهم، بأسلوب حواري حجاجي، فبين فسادها وعدم صلاحها أمام العقل السليم، بلهجة شديدة وعنيفة، تسخر من تلك العقول المضطربة، والنفوس العليلة، فكان للحجاج في أسلوبه وظيفته السردية، وقد

---

[١]- دلائل الإعجاز، ص٣٩١: ٣٩٣.

كان من الضروري التطرق للسياق التاريخي لـ "الدلائل" والمعركة الفكرية التي دارت رحاها بين المعتزلة والأشاعرة بوصفهما قطبي علم الكلام في زمانه، وتجاوزًا للتحليل البنيوي المغلق، الذي يستبعد السياق، ويركز على العناصر الداخلية وحدها.

ويقع الحجاج ضمن اهتمامات البحث التداولي، وقد كان الحجاج طريقة "الجرجاني" في مخاطبة خصمه في محاولة إقناعه بفكرته عن أن مكمن الإعجاز في النظم، وغاية كل حجاج "أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفِّق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة."(1). وقد وفِّق "عبد القاهر" في توظيفه أسلوب الحجاج؛ لأن أساس "منطلقاته ومقاصده، يعالج قضية كلامية في سياق سجالي عنيف، وقد وظف فيه صاحبه كل ما يملك من حجج لدحض نظرية أصحاب اللفظ، واستبدالها بنظرية النظم التي يعتبرها القول الفصل، وحجة الإسكات القصوى على إعجاز النص القرآني."(2).

لقد أدرك "عبد القاهر" أن الحجاج هو المنهج الذي يصلح لهذه القضية، ومع هؤلاء الخصوم، الذين وسمهم بأهل النظر، حتى بلغ مبلغه في البرهنة على ما أراد، وفي التشنيع بخصمه، يقول: " قد بلغنا في مداواة الناسِ مِنْ دائهم، وعلاجِ الفسادِ الذي عرضَ في آرائِهم كلَّ مبلغَ، وانتهينا إلى كلِّ غاية، وأخذنا بهم عَنِ المجاهل التي كانوا يتعسَّفون فيها إلى السَّنن اللاَّحِب، ونقلْنَاهم عَنِ الآجنِ المطروقِ إلى النَّمير الذي يَشْفي غليلَ الشارِب، ولم ندعْ لباطِلِهم عِرْقاً ينبضُ إلاَّ كويناهُ، ولا

(1)– أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، ص ٢٩٩ .

(2)–سياق الحجاج في دلائل الإعجاز، حافظ قويعة، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ١٩٩٨م. ص٢٥٧.

للخلافِ لساناً ينطقُ إلاَّ أخرَسْناه، ولم نتركْ غِطاءً كان على بصَرِ ذي عَقْلٍ إلا حَسرْناهُ."[١].

ومن الناحية البنيوية، فبقدر ما يُلمِّح خطاب "الراوي" إلى انفراده بفكرة النظم التي أدار حولها "دلائل الإعجاز"، فإنه يستدعي أصواتًا غيرية يزج بها في حوارية حجاجية بصيغة (فإن قيل ... قلنا..)، وسلك عده سبل في إثبات فكرته عن الإعجاز بالنظم، أو نظرية النظم وتحققها في أي نص بلاغي، وكانت الوسائل التي استخدمها متنوعة، ومتداخلة، منها: "عرض النصوص وتحليلها، ومنها الجدل العقلي والمنطق السليم، ومنها التأثير النفسي والإحساس الروحاني."[٢]، فهناك إلى جانب صوت "الراوي" صوت هذا التلميذ الذي يستدعيه بـ (اعلم)، ويوجه إليه النصح، والإرشاد العقلي والإيماني، ويحثه على التأمل والتدبر، وأخذِ العلم بالتدرج والصبر، بيد أن صوتَ هذا العنصر السردي لم يتدخل في العملية السردية مباشرة، ولم يكن له خطابٌ منفردٌ في النص، بل كان صوتُه مرتبطًا بصوت الراوي، فأصبح وجودُه متوازيًا مع خطاب الراوي، يكتسب خطاب الراوي من خلاله مشروعيته الخطابية، وحدوده السردية، يُدعِّم هذا الصوت –رغم صمته وعدم تدخله في الحوارية السردية– رؤيةَ الراوي، يتقبل آراءه، ويستجيب لأوامرِه، ويعطي للراوي قيمةً معرفية، وفوقية، وسلطوية تجعله المفكرَ الأعظمَ في المسألة، وتحطُّ ممن سواه.

في مقابل هذا الصوت، تظهر أصواتٌ معارضة (أَصوات خصوم الفكر)، وهي أيضًا مجهولة الهوية، لم يسمِّها "الراوي"، تجاهلًا وتعاليًا منه، غير أن أفكارَها معلومةٌ ومتعارفٌ عليها، انتزعها السارد من واقعيتها، وضمنها سرديته، وأقام "دلائله" على دعواها، وادِّعائها، ناقشها رأيًا رأيًا، وحاجحها حجة حجة، مجيبًا عليها وضدها في الوقت ذاته، وهو إذ يجيب على هذه الأصوات ويقيم حولها سرديته النقدية، فإنه يخاطبها خطابًا متعاليًا، فقد نكل بهم تنكيلاً لفظيًّا وفكريًّا على السواء، وكانت أول

---

[١]– دلائل الإعجاز، ص٤٧٧.

[٢] – عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، ط١ ١٩٧٣ بيروت، ص٣٦.

تلميحاته بوجود هذا الكائن التلفظي في إطلاقه لفظة "الخصم" عليه، وتكفي هذه اللفظة بتحديد مكانته، وتحجيم صوته في السردية النقدية.

ورغم هذه الخصومة فقد رسم هذا الصوت المخالف تعددية صوتية أُسست عليها حوارية ضمنية حينًا، وصريحة حينًا آخرَ، بل لقد كان هذا الصوت هو الدافعَ المُلِحَّ لتأليف "الدلائل"، لدحضه بالحجة والدليل، ورد الشبهات عن كتاب الله –عز وجل– تأصيلًا وتبيانًا، وقد نعته "الراوي" نعوتًا عديدة الألفاظ وأحادية الدلالة، يتضح منها أن "الراوي" لا يلزمه تلك المعركة العقديَّة التي يخوضها مع هذا "الخصم"، إنما يفعلها فقط لأجل عقيدته الأسمى، ودفع الشُبَه عنها، وإنارة طريق الهداية والبيان بالبرهان والدلائل.

تجلت سمات "الخصم" تحت مسميات مختلفة أطلقها "الراوي"، منها "الطائفة" التي اختصت بالجهل دون العلم، وسوء الاعتقاد الذي ظهر في معرض حديثه عن علم البيان والنحو والشعر وأهميتهم، وما لحقهم من ذمٍ وضيم من هذه الطائفة التي لم تعرف، ولا ترقى إلى أن تعرف هذه الخصائص واللطائف، حيث دلل على منزلة الشعر والنحو من قضية إعجاز القرآن، وأنهما الطريق الذي قامت منه الحجة، ويستحيل أن يصل إلى الإقرار بالإعجاز اللغوي إلا من عرف الشعرَ الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والنحو الذي به يعرف العلل التي بها كان التباين في الفضل، والسبيل إلى انتزاع الشاهد والدليل، والناسب الذي يَنْميها إلى أصولها.

من ثم فإن "الراوي" لا يمثل المصدر الثابت والوحيد للمعلومات، والأفكار الواردة في النص، بل هو مجرد مشارك في عملية سردية ضمن عدد لا نهائي من الأصوات المتباينة، ضمَّها إلى خطابه بطريقة خاصة تضم خطابًا منقولًا وآخرَ تابعًا للناقل/الراوي، يندمجا سويًّا منتجين خطابًا متعدد الأصوات، ويتجسد هذا التعدد في كلام "الراوي" نفسه الذي يحمل صوتين متغايرين، فهو عندما يوجه خطابه لـ "المروي له" المتعلم، معرضًا بخصمه، ومشيرًا إليه:

"واعلم أن الداء الدوي، والذي أعْيَى أمره في هذا الباب، غلطُ من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى ما فضل عن المعنى يقول: ما في اللفظ لولا المعني؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟". فأنت تراه لا يقدم شعرًا حتي يكون قد أودع حكمة وأدبًا.."[١].

يميز هذا القول عدد من الأصوات غير صوت "الراوي"، وجاء القول –هنا– في شأن تقدمة المعنى على اللفظ، وقد صرح القائل بأنه قول مغلوط خاطئ، فهو ليس متلفظًا لهذا القول، المتلفظ في الحقيقة هو من يرى هذه الرؤية، غير أن القولَ مسندٌ إلى القائل وليس إلى المتلفظ، فقد نطق القائل/الراوي بما يراه المتلفظ، ولا يقف القائل عند حد النقل، بل أنه أتى بالفكرة ليناقشها، والقائل والمتلفظ هما كائنان خطابيان مغايران للذات المتكلمة/المؤلف، فالقائل قبل أن ينقل القول فهو يحكم عليه بأنه داءٌ دويٌّ مغلوط، وهو بعد أن ألقى قول المتلفظ فإنه يُتْبعه بهدم هذا القول فكريًا، ويعزو خطأهم في تقدمة المعنى على اللفظ إلى سوء اعتقادهم، وجزئية رؤيتهم، كمنْ ينظر إلى الفضة، والذهب بوصفهما معدنًا، دون النظر إلى الصنعة التي صيغ منها أصل المعدن كالخاتم والسوار، "كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر إلى مجرد معناه، وكما أنا لو فضلنا خاتمًا على خاتم، بأن تكون فضةُ هذا أجود، أو فصه أنفس، لم يكن ذلك تفضيلًا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتًا على بيت من أجل معناه، أن لا يكون تفضيلًا له من حيث هو شعر وكلام، وهذا قاطع، فاعرفه."[٢]. يتداخل صوت القائل وفكره مع صوت المتلفظ وفكره، إلى جانب هذا الصوت الصامت الذي يعبر بصمته عن تأييدٍ تامٍ للراوي.

إذن يحمل الخطاب تعددًا صوتيًا في كل زاوية من زواياه سواء تلك التي تخص علاقة الراوي بما ينقله عن السابقين، أو علاقة الراوي بالمروي لهم، حيث

[١]– دلائل الإعجاز، ص ٢٥١، ٢٥٢.

[٢]– السابق، ص٢٥٥.

تختلط الأصوات في قول الراوي الذي يسرد أفكارًا مصوغة بضمير الغائب المتلفظ الرائي لهذه الأفكار، فقول الراوي هو في النهاية ملفوظٌ متعددُ الأصوات، حتى عندما ينقل الراوي خطابًا مباشرًا: "واعلم أنك لست تنظر في كتاب صُنِّف في شأن البلاغة، وكلامٍ جاء عن القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب، ورأيتهم يتشددون في إنكاره وعيبه والعيب به، وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ، ويتشدد غاية التشدد، وقد انتهى في ذلك أن جعل العلم بالمعاني مشتركا، وسوى فيه بين الخاصة والعامة.."(١). نقل الراوي خطابَ الجاحظ مباشرة ليدعم فكرته، فامتزج في الملفوظ صوت الراوي مع صوت شخصية أخرى، أدرجها الراوي في سياق مناهضة أصحاب المعنى، فهناك صوت الشخصيات الأصلية سواء تلك التي تقدم المعنى أو مقالة الجاحظ التي هي عكس ذلك، وبينها أيضًا صوت الراوي الذي ينقل قول هذه الشخصيات من سياقها الشفوي أو المدون إلى سياق الكتابة في "الدلائل" الخاضعة لأسلوب وسيطرة الراوي ورؤيته وتنظيمه للعرض، وحتى حينما ينقل الراوي الخطاب المباشر أو غير المباشر لهذه الأصوات فإنه يتخذ موقفًا مع أو ضد هذه الأصوات، هذا الموقف الذي يتخذه الراوي/الناقل إزاء ما ينقله هو ما يكسب الملفوظ دلالته الخاصة، في تحمُّلِه آثارَ دلالات متباينة بين الناقل والمنقول.

يتجلى التعدد الصوتي من خلال المكون الحواري الذي يفتعله الراوي في معالجة مسائل بعينها، كمسألة "اللفظ والمعني":

"فإن قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قسموا الفضيلة بين المعنى واللفظ فقالوا: معنى لطيف، ولفظ شريف، وفخموا شأن اللفظ وعظموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم، وحتى قال أهل النظر: "إن المعاني لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ، فأطلقوا كما ترى كلامًا يوهم كل من يسمعه أن المزيةَ في حق اللفظ؟

قيل له: لما كانت المعاني إنما تتبين بالألفاظ، وكان لا سبيل للمرتب لها والجامع شملها، إلى أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره، إلا بترتيب الألفاظ في نطقه،

---

(١) – السابق.

تجوَّزوا فكنوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، ثم بالألفاظ بحذف الترتيب، ثم أَتْبعوا ذلك من الوصف والنعت ما أبان الغرض وكشف عن المراد، كقولهم (لفظ متمكن)، يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه... هذا ومن تعلق بهذا وشبهه واعترضه الشك فيه، بعد الذي مضى من الحجج، فهو رجل قد أنس بالتقليد، فهو يدعو الشبهة إلى نفسه من ههنا وثَمَّ. ومن كان هذا سبيله، فليس له دواء سوى السكوت عنه، وتركه وما يختاره لنفسه من سوء النظر، وقلة التدبر."[1].

يعد هذا الملفوظ حوارًا محكيًّا من قبل الراوي، ومحاوره مبني للمجهول، انسجمت خلاله العديد من الأصوات، غير أنها أصوات مبنية للمجهول (قيل)، وحتى ما تتلفظ به الأصوات المجهولة تسنده للمجهول أيضًا (القدماء)، وتبع القدماءَ آخرون، ثم إن هناك "أهل النظر" ولا يسميهم كذلك، كل هؤلاء يعلي من شأن اللفظ، ويجعل المزية فيه، أورد الراوي هذه الأصوات وكلها تحمل رؤيةً واحدة، فما كان من الراوي/الناقل إلا أن ناقش هذه الفكرة، وردها إلى أصحابها بأسلوب حجاجي أثبت به أن لا شأن للفظ ما لم يطمئن إلى معنى موافق له، واتخذ الراوي موقفًا صريحًا من تلك الأصوات المختلطة، فلم يقتصر دور الراوي على مهمة النقل، بل تعداه، وحاجج تلك الأصوات، مذيلًا اعتراضه كعادته بتهكم وسخرية من صوت بعينه في هذا الحوار، وغالبًا هو صوت معاصر للراوي، ليس من القدماء، ولكنه صوت معاصر نافح عن فكرة قديمة مغلوطة، وهذا الصوت هو "الخصم" اللدود الذي أرهق الراوي على طول سرديته، وغالبًا أيضًا لا يمتلك الراوي حد الإقناع معه، فهو خصم معاند أَنِسَ بالتقليد والادعاء، فليس له دواء سوى السكوت عنه، وتركه لضلاله، وقلة تدبره.

لقد جسد هذا الحوار الافتراضي تلك التحولات الفكرية في قضية الإعجاز، وتمكن الناقد بمناقشته الواعية لهذه الآراء أن يصل مع مخاطبه إلى حد الإقناع، فكان الحوارُ شكلًا تعبيريًّا كاشفًا عن التعارضات القائمة، من خلال استرجاع

---

[1]– دلائل الإعجاز، ص ٦٣، ٦٤.

المناقشات الواقعية التي دارت في مجالس العلماء، وقد حذف منها التفاصيل، وأسماء الشخصيات، واكتفى بالرد على آرائهم، وقد تجاوز بذلك التسجيل الحرفي لهذه المناظرات، وتمكن من الكشف الحواري عن أبعاد القضية، وكان لوقوفه على أرضية سردية دورًا في ذلك، فكونه يخاطب "مرويًّا له" بعينه، يوجه له كلامه باستمرار، يكرر معه رؤيته لتثبيتها، وإتيانها من كل الجوانب، في محاولة لإقناعه والسيطرة على انحراف أفكاره.

ثم يعود الراوي كعادته لإلصاق الجديد من التهم لهذا الخصم، ليفتح حوارًا قد أغلقه، مع أصحاب اللفظ الذين هم أهل النظر، وهم أيضًا هؤلاء القوم أصحاب المنزلة والصيت، فيضيف لهم صفة تعريفية غير ما تقدم، فهم أصحاب "الصرفة" أيضًا:

"ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها، تلزم أصحاب "الصرفة" أيضًا، وذاك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله، لأنه معجز في نفسه، لكن لأن أُدخل عليهم العجزُ عنه، وصُرِفَتْ هِمَمهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أُعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له، لكان ينبغي أن لا يتعاظَمَهُم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعَظُم كل العِظَم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل عليهم، ورأوه من تغير حالهم، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا، وأن سُدَّ دونه بابٌ كان لهم مفتوحا، أرأيت لو أن نبيا قال لقومه: "إنَّ آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة، وتُمْنَعُون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم"، وكان الأمر كما قال، مِمَّ يكون تعجب القوم، أمن وضعه يده على رأسه، أمن من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟"(١).

(١) – السابق، ص٣٩٠، ٣٩١.

لقد تمكن الراوي هذه المرة أيَّما تمكن من خصمه اللدود، الذي تتصف مقالاته التي أفاض الراوي بذكرها بالشناعة والضلال، وها هي شناعة أخرى تقترن بهم، إنها مقولة "الصرفة" التي اعتمدوها كدليل إعجازٍ للقرآن، فوقف لهم الراوي بالمرصاد وبَيَّنَ تهافت الفكرة أمام العقل السليم، فكيف بهؤلاء القوم أن يلتمسوا مثل هذا الدليل، وأين كانت عقولهم حين اعتقدوا أن حالهم مع إعجاز القرآن بأن الله أنزل عليهم العجز عن معارضته، وليس لأنه معجز في نفسه، ويعني هذا أنهم كانوا قادرين على معارضته لولا أن سُكرت أفواههم وأبصارهم عن معارضته، يستفهم الراوي منهم استفهام العالم المستنكر لجهلهم، وسوء تفكيرهم، فمما يكون تعجب القوم في أمر الإعجاز، أَمِنْ أنْ أُدخل عليهم العجز فيه، أَم لأنه معجز في نفسه؟! رغم تساؤل الراوي هذا، فإنه يتركهم غير منتظر منهم إجابة، لعلمه بعنادهم وسوء حججاهم، فقال قولته ورحل إلى مقولة أخرى.

وليس هناك حرج لدى "الراوي" من أن يورد رأي خصمه فيه، وهو يشرح كيف أنَّ هذه العلوم الخفية والدقيقة يلقى واردها الجهد والتعب في فهمها وتعلمها، ولا يصل فيها حد الإحكام والعلم التام، وحال هؤلاء الناس الذين أرهقوا "الراوي" وأجهدوه في مثل هذه العلوم التي تعوِّل أساسًا على استشهاد القرائح وسبر النفوس، وهذا تحديدًا هو الذي يفتح الأسماع والأفهام، بيد أن هؤلاء القوم "لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويُفتي ويَقضي، إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته، وصح ذوقه، وتمت أداته. فإذا قلت لهم: "إنكم قد أُتيتم من أنفسكم"، ردوا عليك مِثْلَهُ وقالوا: "لا، بل قرائحنا أصح، ونظرنا أصدق، وحِسُّنا أذكى، وإنما الآفة فيكم لأنكم خيَّلتُم إلى أنفسكم أمورًا لا حاصل لها، وأوهمكم الهوى والميل أن توجبوا لأحدِ النظمين المتساويين فضلًا على الآخر، من غير أن يكون ذلك الفضل معقول، فتبقي في أيديهم حسيرًا لا تملك غير التعجب. فليس الكلام إذن بمغنٍ عنك، ولا القول بنافع، ولا الحجة مسموعة، حتى تجد من فيه عونٌ لك على نفسه... ولم يكن الأمر على هذه الجملة

إلا لأنه ليس في أصناف العلوم الخفية، والأمور الغامضة الدقيقة، أعجب طريقًا في الخفاء من هذا."(١).

لقد تضمن هذا الملفوظ حوارًا بين "الراوي" وخصمه، يظهر فيه كل منهما ندًّا عنيدًا للآخر، يرد على "الراوي" قوله، غير آبه لشيء، ويثبت "الراوي" هذا الرد في سرديته مع ما فيه من قدح في فكره، ثم لا يجد في نفسه غير التعجب من هذه الفئة النافرة، والسكوت عنهم كعادته معهم إذا أفاضوا في أمورٍ خفية ذوقية، تعول على القريحة الصافية.

لم تظهر الأصوات في "الدلائل" بنطق أصحابها، بل من خلال "الأنا الساردة" ولم تتمكن هذه الأصوات من الإفلات من هيمنة "الراوي"، حيث ظهرت عبر قناته الخطابية، ولا يمكن أن تنسب أقوالها إليه، فما هو إلا ناقل لها حتى وإن أسندها للمجهول، لقد تمكن "الراوي" من التفاعل مع هذه الأصوات، بيد أن صوتًا واحدًا ظل سائدًا ومهيمنًا، وبطبيعة الحال هذا الصوت السائد هو صوت "الراوي" وحده، ويستطيع الراوي/الناقد أن يستخدم "خطاب الآخر ويصل به إلى النهايات التي يريدها هو بطريقة يطبع فيها هذا الخطاب، الذي كان دائما يمتلك توجيهه الخاص ويحتفظ بهذا التوجيه، ويوجهه توجيهًا دلاليًّا جديدًا. وينبغي، من حيث المبدأ، أن يُدرَك مثل هذا الخطاب بوصفه خطابَ الآخر. ينتهي الخطاب المفرد (إذن) حاملًا توجيهين دلاليين اثنين، صوتين."(٢). ويتجلى هذا في السردية النقدية بقوة، حيث استعان الراوي بخطاب الآخر دائمًا ليصل من خلاله إلى رؤيته الخاصة، وذلك بعد أن يدحض فكر الآخر، فمثلًا حين يقول:

"ينبغي أن يُقال لمَن يزُعم أن المُنْشِد إذا أنشد شعر امرئ القيس، كان قد أتى بمثله على سبيل "الاحتذاء": أخبرنا عنك؟ لماذا زعمت أن المنشد قد أتى بمثل ما

(١) – ينظر دلائل الإعجاز، ص٥٥٠ ،٥٥١.

(٢)– تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين(المبدأ الحواري)، ص ١٣٩.

قاله امرؤ القيس؟ ألِأَنه نَطق بأَنفس الألفاظ التي نطق بها، أم لأنه راعى "النسق" الذي راعاه في النطق بها؟

فإن قلت: "إن ذلك لأنه نطق بأنفُس الألفاظ التي نطق بها"، أَحَلْتَ، لأنه إنما يَصِحُّ أن يقال في الثاني أنه أتى بمثل ما أتى به الأول، إذا كان الأول قد سبق إلى شيء فأحدثه ابتداءً، وذلك في الألفاظ محالٌ، إذ ليس يمكن أن يُقال: إنه لم ينطق بهذه الألفاظ التي هي في قوله: (قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ) قبلَ امرئ القيس أحدٌ.

وإن قلتَ: إن ذلك لأنه قد راعى في نطقه بهذه الألفاظ (النسق) الذي راعاه امرؤ القيس.

قيل: إن كنت لهذا قضيت في المُنشِد أنه قد أتي بمثل شعره، فأخبرنا عنك؟ إذا قلتَ: "إن التحدي وقع في القرآن إلى أن يُؤتَى بمثله على جهة الابتداء"، ماذا تعني به؟ أتعني أنه يأتي في ألفاظ غير ألفاظ القرآن، بمثل الترتيب والنسق الذي تراه في ألفاظ القرآن؟ فإن قال: ذلك أعني. قيل له:...."[1].

وظف "الراوي" خطاب الآخر/الخصم حواريًّا، فمنح خطابه توجهًا خاصًا، أراده منذ البداية قبل أن يخوض حواريته، ورغم هذا التمايز بين الخطابين، فإن علاقةً حواريةً تجمع بينهما، أسهمت في التشكيل السردي للخطاب، وأسند "الراوي" خطاب الآخر إلى المجهول، ولعل "الفرق بين أنواع الخطاب المبنية لصيغة المعلوم، وأنواع المبنية لصيغة المجهول متعلقة بالدور المزعوم الذي يقوم به التلفظ السابق (تلفظ الآخر)."[2].

بجانب الحوار، فقد توفرت أبعاد تداولية حجاجية في هذا النص، فالحوار هو خاصية حجاجية جدلية، "وحدُّ الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأن

---

[1] – ينظر دلائل الإعجاز، ص٤٧٢، ٤٧٣.

[2] – ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، ص ١٣٩.

طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية؛ ويهدف إلى الاشتراك جماعيًّا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجَّهًا بقدر الحاجة، وهو -أيضًا- جدلي؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات الهرمية الضيقة، وأن يُفْهِم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها؛ تعويلًا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتًا أو إنكارًا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم"[١]. فمن خلال الحوار الجدلي بين الراوي ومخاطَبه، تمكن الراوي من إفحام مخاطبه على الوجه الذي يرضيه، وقد تهيَّأ مخاطبه لهذا الحجاج، وبينهما نسق فكري مشترك، استطاع الراوي بقوة حجته أن يصل إلى إقناع مخاطبه داخل سرديته النقدية.

لقد كان هذا الدور المزعوم الذي قام به الآخر على طول السردية سببًا في تحديد رؤية الراوي/الناقد ودعمها على نحوٍ مُرْضي للراوي، لذا بعد أن أنهي تلك المناظرة التي عرض فيها الاحتذاء والنسق في إعجاز القرآن، وانتهى فيها إلى القول الفصل، يعقب الراوي بمقولته في "النظم" التي لا يفتأ يذكرها كل حين: "وههنا أمر عجيب، وهو أنه معلوم لكل من نظر، أن الألفاظ من حيث هي ألفاظٌ وكلمٌ ونطقُ لسانٍ، لا تختص بواحد دون آخر، وأنها إنما تختص إذا تُوُخِّي فيها النظم، وإذا كان كذلك، كان مَن رَفَع "النظم" من البَيْن، وجعل الإعجاز بجملته في سهولة الحروف وجريانها، جاعلًا له فيما لا يصح إضافته إلى الله تعالى، وكفى بهذا دليلًا على عدم التوفيق، وشدة الضلال عن الطريق."[٢].

اعتمد "الراوي" طرائق مختلفة لعرض قضيته حول "إعجاز القرآن" للمروي له، بالرغم من أنه يتبنى رؤية محددة واضحة، فإنه يطرح رؤىً ومسائل متباينة حول القضية نفسها، تدعم رؤيته، وتمهد للمروي له استقبالها وتقبلها، افتتح "الراوي" حديثه

[١]- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبدالرحمن، ط٢، ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص ٦٥.

[٢] – دلائل الإعجاز، ص ٤٧٦.

غالبًا بتلك الصيغة الاتصالية التي تفترض (الأنا) و (الأنت) في (اعلم أنك لن ترى عجبًا...) في مقابل (الهُم/ الخصم)، فبجواره دائمًا هذا الـ (أنت) الذي يُكْسب تلفظه وجودًا سرديًّا، ويدرك مقاصده، ويحقق له هيمنة معرفية وخطابية ضد هذا الخصم الذي يستدعيه أيضًا باستمرار ليوجه إليه دلائله غير آبه لاقتناعه من عدمه.

يفرض "الضمير حضوره بوصفه أداةً مركزية في بناء السرد، بل هو عنصر أساس في تحديد النوعية، فالضميران (أنا– نحن) وتوابعهما، يقودان النص إلى منطقة (الشعرية) حينا، وإلى منطقة (السيرة) حينًا آخرَ، وربما لا يكون هذا ولا ذاك، وإنما يكون حضورهما علامة على توحد المؤلف بالراوي الداخلي. أما ضمير المخاطب (أنت) وتوابعه، فإنه يقود النص إلى دائرة (الحوار) المسرحي على وجه العموم، والملاحظ أن هذا الضمير له صلة حميمية بمناطق التوتر والصدام، سواء أكان صدام مواقف، أم صدام شخوص."[١]؛ وبالفعل هنا فإن الصدام صدام مواقف، وقد بين المؤلف مرارًا مع من يصطدم، إنهم أهل النظر، أصحاب اللفظ، الذين كانوا محط اهتمامه، لكونهم أصحاب نفوذ، وكلامهم وأفكارهم منتشرة بين الناس، ولها تأثيرها في العامة، لذا أخذ على عاتقه مواجهتهم، والرد عليهم، الحجة بالحجة.

فجسدت هذه النصوص تعددًا ليس في مستوى الضمائر واللغة فحسب، بل في مستوى الرؤى، والأفكار، والمواقف التي اجتهد "الراوي" في حبكها ضمن سرديته، بطريقة أغنت السرد، وأحدثت مفارقات فكرية، وذهنية دعمت في النهاية رؤية المؤلف/الراوي.

ثانيًا: الوحدة السردية:

يقر أحدُ وأهمُّ محققي "دلائل الإعجاز" وهو الشيخ "محمود محمد شاكر"، أن "عبد القاهر الجرجاني" قد أسس علمًا جديدًا اهتدى إليه، واستدركه على من سبقه، وشق له الطريق ومهده، ولكنه تعجب من بناء الكتاب الذي لم يسر فيه سيرة من

---

(١)– القراءة الثقافية، ص١٧٤، ١٧٥.

يؤسس علمًا جديدًا، "كالذي فعله سيبويه في كتابه العظيم، أو ما فعله أبو الفتح ابن جِنِّي في كتابه "الخصائص"، أو كالذي فعله عبد القاهر نفسُه في كتابه "أسرار البلاغة"، بل كانَ عملُه وهو يؤسس هذا العلمَ الجديد، مَشُوباً بحميَّة جارفةٍ لا تعرف الأناةَ في التبويب، والتقسيم، والتصنيف، وكأنه كانَ في عَجَلةٍ من أمره، وكأنّ منازعًا كان يُنازعُهُ عند كُلّ فكرةٍ يريدُ أن يُجَلّيَها ببراعته وذكائه وسُرعة لَمْحه، وبقوّةِ حُجَّته ومضاءِ رأيه."[١]. ويعزوا المحقق السر في العجلة التي صرفت "الجرجاني" عن التبويب، والتقسيم، والتصنيف، إلى أنه كان همه نقض كلام "القاضي عبد الجبار" في الفصاحة، والكشف عن فساد أقواله في مسألة اللفظ، بالتحديد في كتابه "المغني"، بالإضافة إلى "أن طائفة من المعتزلة، من أهل العلم، في بلدته جرجان، وفي زمانه، كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة "إعجاز القرآن"، واتكأوا في جدالهم على أقوال القاضي عبد الجبار التي جاءت في كتابه "المغني"."[٢].

بينما يرى محققون آخرون لـ "دلائل الإعجاز" "أنه كتاب محاضرات لا يُحدّ بصفحات لها عددها الذي لا يزداد، بل إن عبد القاهر –فيما يبدو لنا– كان يزيد في أحاديثه ومجالسه ما يجعل المتلقين عنه تختلف نسخهم بين سنة وأخرى، اختلافًا لا يغير من جوهر القضايا والآراء المطروحة، وإنما يبسط الكلام هنا أو هناك، أو تضاف فقرات أو فصول صغيرة في صفحات، ولو تأملنا النسخ التي بين أيدينا لرأينا أنها لم تتخذ لها التقسيم الحاسم في أبواب أو فصول متمايزة كل التمايز."[٣].

لعل هذه الآراء التي نطق بها محققو الكتاب الذين قد أتوا على كل صغيرة وكبيرة لإخراج الكتاب في هيئته المنضبطة المحققة على الوجه الأفضل؛ أحرى باستبعاد فكرة الوحدة الموضوعية ومن ثَمَّ السردية في الكتاب، حيث لم يعتمد مؤلفه تقسيمًا ولا تبويبًا لكتابه، وقد أحالوا هذا الأمر إلى أسباب عديدة، منها أن المؤلف ربما كان على عجلة من أمره، وقد كانت تراوده الأفكار، فأقرها كما راودته دون

---

(١)– دلائل الإعجاز، مقدمة المحقق، ص أ.

(٢)– السابق، ص و.

(٣)– دلائل الإعجاز، تحقيق د/ محمد رضوان الداية، ود/ فايز الداية، دار الفكر بدمشق، ط١، ٢٠٠٧م.

ترتيب، ولا تنسيق، ومنها أيضًا أنه ربما كان في وضع مناظرة مع طائفة من "المعتزلة" في زمانه، وسجل في كتابه ما وقع في المناظرة دون تبويبها.

بيد أنه، وبالرغم من إقرار المحققين باضطراب تبويب الكتاب، فإن لعبد القاهر رأيًا آخرَ، ففي نهاية التمهيد الذي افتتح به كتابه –كما سبق في سياق الحديث عن المروي له– قال: "وليس يَتأتَّى لي أن أُعْلِمَك مِنْ أولِ الأمرِ في ذلك آخِرَه، وأَنْ أسمِّي لك الفُصُولَ التي في نيَّتي أن أُحرِّرها بمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ، حتى تكونَ على علمٍ بها قبل مَورِدِها عليك. فاعملْ على أنَّ ههنا فصولاً يَجيء بعضُها في إثْرِ بعضٍ، وهذا أَوَّلها."[1].

لقد كان (عدم التبويب) مقصودًا من "عبد القاهر"، فلم يكن اضطرابًا، أو عجلةً منه، أو على سبيل تدوين المناظرة كما وقعت–كما يرى أكثرُ المحققين– وإنما قصد المؤلف أن يخرج مؤلفه بهذا الشكل العجيب، لحاجة في نفسه، وقد أبان عن هدفه في ذلك، وتبين من كلامه –أعلاه– أن غايته سردية مرتبطة بـ "المروي له" على وجه الخصوص، فهو مدرك لطبيعة "مخاطَبه" تمامًا، وفي الآن نفسه، فإنه يقر أن في نيته فصولًا بعينها لا ينبغي أن يعلمها المتلقي في البداية، وإنما عليه أن يتتبعها واحدًا تلو الآخر.

ومن ثم، لم يكن الأمر عشوائيًّا كما بدا، حيث أدرك الكاتب منهجه جيدًا، وتلك إرادته الراسخة، وقد رتب لها في فكره، وقصدها قصدًا، لاعتبارات سردية (بحتة) خاصة بالمتلقي، وقد صرح له مباشرة بذلك، ونبهه إلى أن الفصول سوف يجيء بعضها في إثر بعض، أي في تسلسل وانسجام، مترابطة الأفكار، وعليه أن يعي تلك الروابط بين الفصول، ويتدبر مرمى المؤلف الضمني. ويتبين الوحدة (السردية) من خلال وحدة الموضوعات، وتلاحمها. حيث "إن المشكلة التي تعالجها القصة هي

[1]– دلائل الإعجاز، ص٤٢. وقد سبق الاستشهاد بهذا الكلام في سياق الحديث عن "المروي له"، ولكن الاقتباس هنا له سياق مختلف.

الوحدة التي يقوم عليها فن التركيب والبناء."[١]، بمعنى أن القضية المطروحة تمثل وحدة سردية وحوارية موجهة إلى المتلقي ذاته، أي أن الوحدة هي القضية الفكرية المطروحة. إذن ف "عبد القاهر" له ترتيبه الخاص –في الواقع– تأتي موضوعاته في إثر بعضها بعضًا، وقد قصد من وراء هذا الترتيب الخاص إرهاق مخاطَبه في تتبع التنظيم.

يتمحور "الدلائل" حول فكرة مركزية أدار عليها أبوابه غير المعنونة، وهي فكرة "النظم" وإعجازه، وكل ما يرتبط به من علوم اللغة، والبلاغة، والقواعد، والأحكام، فقضية "النظم" هي الوحدة الموضوعية والسردية التي كونت بنية "الدلائل"، والتي ربطت بين أجزائه، ولأجلها أقام الحجج على أهل النظر، وأصحاب اللفظ، ولإثبات فكرته عن إعجاز "النظم" أتى بتلك التفاصيل المتعلقة به من تراكيب، وأساليب التقديم والتأخير، ووجوه الإعراب المختلفة، وكل ما كان سببًا في إبداع النظم وجماله. للمؤلف غاية محددة، وواضحة من كتابه "دلائل الإعجاز"، فقد حاول أن يثبت "إعجاز القرآن"، ولكي يصل إلى هذه الغاية، بدأ "بحثه بنقد نظريتين قديمتين: إحداهما تجعل جمال الكلام في اللفظ، والأخرى تجعله في المعنى، وإنما هو في نظم الكلام، أي في الأسلوب. ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته، فيدرس (الجملة) بالتفصيل، منفردة ومتصلة، فيضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف، وقيمة الإيجاز والإطناب، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وبذلك يضع أساس علم المعاني المشهور."[٢].

وبقدر ما يظهر الإطناب في معالجة الأفكار، وكأنه تشتيتٌ وبعثرةٌ للوحدة الغرضية التي تحكم خطاب المؤلف، فإن هذا التشعب في الأصل يدور حول الوحدة الغرضية الرئيسة، وهي إثبات أن المزية في "النظم" من كل الوجوه الإعرابية والبلاغية. فإذا نُظر إلى "الدلائل" في مجمله، وما يضمه من أبواب في علم المعاني،

[١]– الفن القصصي في القرآن، د/ محمد أحمد خلف الله، سنا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي، ط٤ ١٩٩٩م. ص٢١٣.

[٢]– تمهيد في البيان العربي، ص٣٠.

والمسائل المتشعبة منه، بداية من كلامه عن الشعر، والنحو، والفصاحة، والبلاغة. وكلامه في المجاز وفروعه، ثم النظم وعلاقته بالنحو والبلاغة، وحديثه عن حقيقة الإعجاز ومعالمه ووجوهه، إلى آخر موضوعات الكتاب؛ فإنه ومع اختلاف الموضوعات يدور حول "إعجاز النظم"، فبرغم استقلال المباحث التي عرضها، فإنها ترتبط جميعها بالنظم، ومن ثم فقد كانت قضية "النظم" هي التي أسست الوحدة السردية والموضوعية لـ "دلائل الإعجاز".

خاتمة البحث

وفي الختام، فقد سعى "عبد القاهر" في دلائله إلى إثبات دلائل إعجاز القرآن الكريم، موجهًا خطابه إلى فئة بعينها تنتمي إلى مذهب فكري مختلف عن مذهب الناقد، ويحمل أفكارًا رفضها الناقد بالحجة والدليل، وسلك مع هذه الطائفة طرائق عديدة لإقناعهم بأن "النظم" هو السبيل القويم لإثبات الإعجاز، ولما كانت غايته هذا الخصم العنيد، فقد ناظره بكل ما أوتي من وسائلَ حجاجية حينًا، وحوارية سردية حينًا آخر. ورغم افتقاد الكتاب للتبويب والتنظيم، فإنه ظل متماسكًا بوحدة سردية، تعلقت مفرداتها فيما بينها، وتأسست الوحدة السردية على وحدة فكرية، ومذهبية اعتنقها المؤلف وصار على نهجها، وجادل في إثباتها.

وتجلى الشكل السردي بوصفه وسيلةً بليغةً للتوصيل، وهو وسيلة يعني أنه لم يكن هدفًا في ذاته، ولم يكن مقصودًا، وإنما هو وسيلة لتفعيل التواصل، وتحقيق أهدافه المعرفية. ولأنه كذلك، فلم يحجب عمل الخطاب النقدي، بل أسهم في تحقيق التواصل بين أطراف الخطاب، وجسد قضايا النقد، ومحاورها، وأطرافها، ومناخها الثقافي، والاجتماعي، ووعي الشخصيات من الأدباء، والشعراء، والنقاد. وأسهم – أيضًا– في الكشف عن ملامح البيئة العلمية في وقته، والتحولات التي طرأت على المجالس العلمية.

وبالنسبة للحوار الذي وظفه النقاد لعرض القضية النقدية، فقد اتَّسم الحوارُ بفاعلية سردية، وأضاف للنصوص النقدية بعدًا تداوليًا، أسهم في التوصيل البلاغي، وإقناع المتلقي بالفكرة التي يتبناها المؤلف. وقد توافق كلام الشخصيات/ الأصوات مع مستواها الفكري، والأدبي، فتعددت مستويات الحوار بتعدد أنماط الشخصيات المتحاورة، وقد أتاح عنصرُ الحوار بسطَ الموضوعات الفكرية، والنقدية بتجاوز الأشكال الكتابية ذات السمة الأحادية، وكان اختيار صيغة الحوار من قبل الناقد واعيًا، جاء ضِمْن تَصوّر ارتضاه الناقدُ لنفسه، فوضع في اعتباره ضرورة حضور الآخر، وأفكاره، وآرائه. ويبقى الحوار في النهاية يحمل في طيَّاتِه صوتَ المؤلف، يعرض ما يريد، بالكيفية التي يريد. ارتبط الحجاج بالحوار السردي في أكثره، في

احتجاج عبد القاهر لفكرة "النظم". ومن ثم فقد تأثر النقد الأدبي بالحجاج والجدل، متأثرًا في ذلك بالفرق والمذاهب الكلامية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

أولًا: مصادر البحث:

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٤م.

- دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى٢٠٠٧م.

ثانيًا: المراجع:

- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف– القاهرة، الطبعة الثالثة عشر ٢٠١١م.

- الحجاج في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، د/ عبد القادر حمراني، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، ع٣١ ، ٢٠١٥م

- الفن القصصي في القرآن، د/ محمد أحمد خلف الله، سنا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي–لندن، بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٩٩م.

- القراءة الثقافية، د/ محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠١٩م.

- الكشف عن أصول دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني" للدكتور حسن إسماعيل عبد الرازق، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، ع١٩،ج١، ١٩٩٣م.

– أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس.

– تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د/ إحسان عباس، نقد الشعر، دار الثقافة– بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٣.

– تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، طه حسين، مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٩٨٠م.

– خطاب الحكاية، بحث في المنهج، جيرار جينيت، ترجمة محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلي. المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.

– سياق الحجاج في دلائل الإعجاز، حافظ قويعة، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ١٩٩٨م.

– عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، د/ أحمد أحمد بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب(٨)، مكتبة مصر.

– عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، ط١ ١٩٧٣ بيروت.

–في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء. الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

– معجم السرديات، مجموعة من المؤلفين، إشراف محمد القاضي، دار محمد على للنشر– تونس، وآخرون، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

- ميخائيل باختين(المبدأ الحواري)، تزفيطان تودوروف، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

والله الموفق إلى سواء السبيل.